أثر العروبه والإسلام فى نشأة فنون العمارة والزخرفة الإسلامية

ليس من شك في أن من أبرز معالم الحضارة الاسلامية فنون العمارة والزخرفة الاسلامية التى بلغت درجة من الرقى والاتقان والجمال تضعها في مستوى أرقى الفنون واكثرها أصالة وتأنقا . (١)

ففى مجال العمارة مثلا بلغت العمائر الاسلامية سواء من حيث التخطيط أو أساليب البناء والزخرفة درجة عالية من الفخامة والجمال ، وزاول المعماريون المسلمون تشييد شتى أنواع المبانى ، كما خلفوا لنا أنماطا كثيرة من العمائر الاسلامية من مساجد ومدارس (شكل ١) وقلاع وقصور واسواق واربطه ومطابخ ومساكن وغير ذلك من المبانى الدينية والمدنية والعسكرية . كما خططوا المدن ، وعبدوا الطرق وشقوا القنوات وشيدوا القناطر . ووصلنا نماذج كثيرة من هذه المنشآت والعمائر في مختلف الاقطار الاسلامية .

وفضلا عن ذلك فان العمارة الاسلامية تتميز بوحدات وعناصر معمارية خاصة بها كالمآذن والقباب والمداخل والعقود والاعمدة والمقرنصات (٢) (انظر شكل ١)

أما في مجال الفنون التشكيلية فقد ترك لنا الفنانون المسلمون زخارف جدارية ومنحوتات حجرية وجصية وتشكيلات من الخزف والزجاج والمعادن والعاج تمتاز رغم قلتها برقيها ومستواها الفنى الرفيع .

وبالاضافة الى العمارة والفنون التشكيلية احتلت الفنون الزخرفية الاسلامية مركزا أساسيا بين أفرع الفن الاسلامى : اذ تفوق المسلمون في شتى الفنون التطبيقية مثل فنون الكتاب من تجليد وتذهيب وخط وتصوير ، ومثل فنون الخزف والخشب والنسيج والسجاد وغيرها . ونشأ كل من هذه الفنون على أسس متينة ، وتطور حسب طرز متنوعة ، وشمل أنواعا مختلفة وأدوات عدة ، وكان له طرقه الصناعية الخاصة به ، وعناصره الزخرفية المميزة له .

وما يؤسف له أن ظهرت نزعة بين بعض دارسى الفنون الاسلامية تهدف الى انكار فضل العروبة والاسلام في تكوين هذا التراث الاسلامى العظيم سواء في مجال العمارة أو الزخرفة .

فمن جهة زعموا أن العرب لم يكن لهم من الذوق الفنى أو المهارة الصناعية أو الحذق بأساليب البناء ما يؤهلهم للاسهام الجدى في نشأة وتطوير فنون العمارة والزخرفة في الاسلام ، ومن ثم أرجعوا نشأة العمارة والفنون الاسلامية الى تأثيرات جاءت من الشعوب غير العربية التى دخلت في الاسلام ، ومن الحضارات الأخرى المعاصرة والقديمة .

ومن جهة اخرى افترضوا أن الفخامة والتأنق والزخرفة التى حققتها الفنون الاسلامية تتعارض مع تعاليم الاسلام التى تدعو ـ حسب قولهم ـ الى الزهد والتقشف والبعد عن التزين ، واستنتجوا من ذلك أن الفنون الاسلامية لا بد أنها قد استوحيت من مبادىء آخرى غير اسلامية (٣) .

والحق أن هذه المزاعم نتجت عن جهل بأوضاع العرب قبل الاسلام ، وعن نظرة سطحية سواء الى تعاليم الاسلام أو الى حقيقة الفنون الاسلامية نفسها .

وفي رأينا أن فنون العمارة والزخرفة الاسلامية ـ شأنها شأن سائر مظاهر الحضارة الاسلامية ـ نشأت على أساس قويم من العروبة والاسلام ، وظلت رغم تطورها وتفرعها محتفظة بالروح العربى الاسلامى الذى كان له الفضل الاول في أصالتها ووحدتها .

احوال العرب الفنية عند ظهور الاسلام :

اننا لا نعرف الكثير عن الحالة الفنية في بلاد العرب عند ظهور الاسلام ، وان كان ما وصلنا من التراث الادبى يدل على أن العرب في ذلك الوقت كانوا قد بلغوا مستوى رفيعا جدا في الذوق والاحساس الفنى بصفة عامة : بحيث تسنى لهم أن يتذوقوا بلاغة القرآن الكريم ، ويشهدوا باعجازه .

ومع ذلك فيمكننا في ضوء ما وصلنا من شواهد قليلة أن نتعرف على بعض المظاهر الفنية في بلاد العرب .

ويتضح مما وصلنا من الاثار والتراث الادبى أنه كان للعرب قبل الاسلام فن معمارى ازدهر نوع منه حتى انتشر خارج الجزيرة العربية : ونعنى بذلك عمارة الحصون والآطام التى ازدهرت في بلاد العرب منذ بداية العصر الميلادى (٤) . ومن أشهر هذه الحصون في بلاد اليمن قصر غمدان وبينون وسلحين التى ورد ذكرها في الادب الجاهلى . قال ذو جدن الحميرى ينعى غمدان :

وغمدان الذى حدثت عنه بنوه مسمكا في راس نيق
بمنهمة واسفله جرون وحر الموجل اللثق الزليق
بمرمرة واعلاه رخام تحام لا يغيب في الشقوق
مصابيح السليط تلوح منه اذا يسمى كتوض من البروق
ونخلته التى غرست اليه يكاد البسر يهصر بالغدوق
فاصبح بعد جدته رمادا وغير حسنه لهب الحريق (٥)

وقال أيضا مشيرا الى قصرى بينون وسلحين وهدم ارباط لهما :

هونك ليس يرد الدمع مافاتا لاتهلكى أسفا في اثر من ماتا
ابعد بينون لا عين ولا اثر وبعد سلحين يبنى الناس أبياتا

وتدل بعض الشواهد على أن هذه الحصون أو الأطام كانت تقام عند العيون وابار المياه على طول طرق القوافل الممتدة عبر جزيرة العرب • وكانت في كثير من الاحيان ذات تخطيط مربع ، وتتألف من عدة طبقات ، ويحف بها أسوار ، ولها رحاب ومداخل حصينة ، كما كانت متينة البنيان يدخل في تشييدها استخدام الصخور الضخمة والاحجار المهذبة بالاضافة الى قوالب اللبن الصلبة ، وكانت جدرانها تكسى بالجص ، وتزخرف أحيانا بالصور والنقوش ، كما كانت تضم بداخلها بعض الآثار •

وكانت هذه الأطام تتخذ مساكن للقبائل والبطون التى تشرف على طرق القوافل، وأسواقا للتبادل التجارى ، ومستودعات للمؤن والذخائر ، وأبراجا للمراقبة ، ومنتديات للاجتماع والتشاور ، وملاجىء يتحصن بها عند الأخطار •

ومن المعروف أنه كان بالمدينة المنورة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم حصون وآطام بلغ عددها ١٩٩ وورد ذكر بعضها في أخبار غزوات النبى (ص) • وترجع بداية تعمير الاطام بالمدينة المنورة الى العماليق • وكان آخر أطم بنى بالمدينة هو المعرض أطم بنى ساعدة من الخزرج وقد أذن لهم النبى (ص) باتمامه عند هجرته •

ومن آطام المدينة المنورة التى وصلتنا آثارها اطم احيحه بن الحلاج الاوسى المسمى بالضحيان . ويقع على نشز الحرة في الجنوب الغربى من مسجد قباء وهو مشيد بحجارة الحرة ويبلغ ارتفاع الأجزاء الباقية منه حوالى ١٤ مترا ، ويوجد بالقرب منه بئر مهجورة يقال انها بئر الأطم ، ومن المرجح أنها كانت داخلة في محيطه •

وكان من أهل المدينة من يتقنون تشييد الأطام وعمل بعضهم في بنائها خارج المدينة • (٧)

وعلى نمط الحصون العربية شيدت خارج جزيرة العرب حصون بلغ من انتشارها أن وصلت بيزنطه (٨) · ومن المرجح أن القصور التى بناها الامويون فيما بعد في صحراء الشام مثل المشتى والحير الغربى والحير الشرقى والطوبه وغيرها قد تأثرت في بنائها بهذه الحصون ·

وبالاضافة الى هذه الدلائل المادية فان تكرار الاشارة الى البناء والعمائر والتمثيل بها في القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف فضلا عن الادب الجاهلى ليشهد بصلة العرب الوثيقة بهذه الفنون : اذ ورد فيالقرآن الكريم ذكر الحصون (٩) والصياصى (١٠) والبروج (١١) والقصور (١٢) والغرف (١٣) والجدران (١٤) والصروح ١٥ والقرى المحصنة ١٦ ·

كما ضرب المثل بالبنيان الذى يشد بعضه بعضا في حديث النبى صلى الله عليه وسلم ١٧ ·

هذا من حيث العمارة أما من حيث الفنون التشكيلية أى النحت والتصوير فمن المعروف أن العرب قبل الاسلام كانوا يعبدون الاصنام : أى أنهم ولا شك قد وجد بينهم من كان يصنع الصور والتماثيل التى كان يتعبد اليها العرب في الجاهلية ، وقد وصلنا أسماء بعضهم مثلأبى تجزأة (١٨)، كما أشارت الاحاديثالنبويةالشريفة الىطبقة المصورين الذين كانوا يصنعون الاصنام ، ونهتهم عن هذا العمل ، وحذرتهم من مزاولة صناعة الاصنام من تماثيل وصور ·

من ذلك ما أورده البخارى في باب التصاوير من كتاب اللباس في صحيحه عن مسلم انه قال : « كنا مع مسروق في دار يسار بن نمير فرأى في صفته تماثيل فقال : سمعت عبد الله قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « ان أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون » (١٩)

وروى في باب بيع التصاوير التى ليس فيها روح وما يكره من ذلك ، من كتاب البيوع ، عن سعيد بن أبى الحسن أنه قال « كنت عند ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ اذ أتاه رجل فقال : يا أبا عباس انى انسان انما معيشتى من صنعة يدى ، وانى أصنع هذه التصاوير فقال ابن عباس : لا أحدثك الا ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من صور صورة فان الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبدا » فربا الرجل ربوة شديدة واصفر وجهه : فقال : ويحك ، ان أبيت الا أن تصنع فعليك بهذا الشجر : كل شىء ليس فيه روح · » (٢٠)

ويتضح من هذا كله أن العرب كانت لهم خبرة بالفن التشكيلى بصرف النظر عن الأهداف التى كانوا يرمون اليها ·

ومن جهة أخرى لا شك وأن العرب كانت لهم خبرة بأنواع الفنون التطبيقية ولا سيما الفنونِ الوثيقة الصلة بمعيشتهم مثل صناعة الفخار والحلى والنسيج والجلود والاسلحة وما أشبه ذلك وقد ورد في أدبهم ما يشهد على ذلك ·

ذكر الميدانى أن مارية بنت ظالم بن وهب أهدت الكعبة قرطيها وكان يحليهما درتان كبيرتان في حجم بيض الحمام حتى أنه ضرب بهما المثل فقيل : «خذه ولو بقرطى مارية » ·

ونسب بعض الشعراء سنانا الى صانعه فقال :

قناة مذرب اكرهت فيها   شراعيا مقاله ظماء (٢١)

ووصلنا أحاديث نبوية شريفة تشير الى اتخاذ العرب لبعض التحف الفنية مثل المنسوجات المزوقة بالصور وتماثيل الخيول ذات الاجنحة والسيوف والحلى وغيرها ·

أورد البخارى في باب « من كره القعود على الصور » من كتاب اللباس في صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير فقام النبى صلى الله عليه وسلم بالباب فلم يدخل فقالت : أتوب الى الله مما أذنبت ، قال : « ما هذه النمرقة ؟» قالت لتجلس عليها وتوسدها· قال : «ان أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة : يقال لهم أحيوا ما خلقتم ، وان الملائكة لا تدخل بيتا فيه الصور · » (٢٢)

واورد البخارى كذلك في باب « ما وطيء من التصاوير » من كتاب اللباس أن عائشة رضى الله عنها قالت : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر وقد سترت سهوة لى بقرام فيه تماثيل فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تلون وجهه وقال : يا عائشة أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله · قالت : فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين · » (٢٣)

وجاء في « ربيع الابرار » للزمخشرى في حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك ، وفي سهوتى ستر ، فهبت فكشفت ناحية الستر عن بنات لى فقال : ما هذا ؟ قلت : بناتى ، ورأى بينهن فرسا له جناحان قال : فرس له جناحان ؟ قلت : أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحه ؟ فضحك حتى بدت نواجذه » (٢٤) ·

كما جاء أن الرسول صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم وعليه مرط مرحل من شعر أسود وأنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى وعليه من هذه المرحلات ، وجاء في حديث عائشة رضى الله عنها : « وذكرت الانصار فقامت كل واحدة الى مرطها المرحل · » (٢٥)

وفضلا عن ذلك فقد ورد ذكر الخاتم (٢٦) والسيف (٢٧) والكير (٢٨) في أحاديث نبوية شريفة .

وهكذا نخرج من ذلك كله بأن العرب كانت لهم تقاليدهم الفنية عند ظهور الاسلا ونشأة الحضارة الاسلامية ومن ثم لم يكونوا عالة على الحضارات الاخرى في هذا المجال . وحينما دخل العرب المسلمون الاقطار التى كانت خاضعة للفرس الساسانيين وللرومان البيزنطيين والتى شملت ما بين المحيط الاطلسى غربا وحدود الهند شرقا وسارع أهلها الى الانضواء تحت راية الاسلام والعمل في ظله ساعد تفوق العرب السياسى والحربى والخلقى في ذلك الوقت على سيادة الطابع العربى الاسلامى في هذه الاقطار .

وكان العرب المسلمون على قسط وافر من سعة الافق السياسى والحس الحضارى بحيث حافظوا على التقاليد الفنية والصناعية النافعة في البلاد التى فتحوها ، بل وعملوا على تقدمها وتطورها في الطريق السليم .

واستطاعت الدولة الاسلامية الناشئة ـ بفضل الروح الاسلامى الجديد والخبرات الصناعية والفنية التى يتمتع بها شعوبها من عرب وفرس وروم وقبط وغيرهم ـ أن تبتكر فنا جديدا يمتاز بامتزاج التقاليد الصناعية المختلفة وبسيادة الطابع العربى الاسلامى . (٢٩) .

الأسس العربية الاسلامية لفنون الاسلام :

قامت الفنون الاسلامية على أسس عربية راسخة وتكونت حول محاور اسلامية صحيحة .

وأول هذه الأسس او المحاور المسجد الذى يعتبر أهم معالم الفنون الاسلامية . وتعمير المسجد من أفضل القربات الى الله حيث يقول سبحانه وتعالى : « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكات ولم يخش الا الله فعسى اولئك أن يكونوا من المهتدين . » (٣٠)

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا في الجنة » (٣١)

والوظيفة الاساسية للمسجد هى اقامة الصلاة : يقول الله تعالى : « لمسجد أسس على التقوى من اول يوم أحق ان تقوم فيه . » (٣٢) والصلاة عماد الاسلام من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين .

ولم تقتصر وظيفة المسجد على الصلاة بل كان المسجد أيضا مركز الحكم والادارة

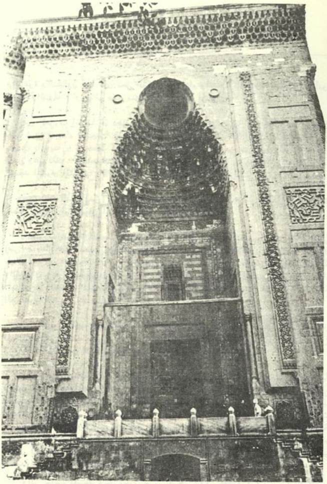

(شــكل «١»)

مدخل مدرسة السلطان حسن بالقاهرة وتشاهد المقرنصات اعــلاه

والدعوة والتشاور كما كان محل القضاء والافتاء والعلم والاعلان وغير ذلك منأمور الدين والدولة · ومن ثم علت منزلة المسجد عند المسلمين ·

ومن المعروف أنه ما ان دخل النبى صلى الله عليه وسلم المدينة عقب الهجرة حتى شرع في بناء المسجد : فمهدت قطعة من الارض اشتراها النبى (ص) من غلامين يتيمين بالمدينة ، ثم خطط المسجد ، وأعدت مواد البناء من حجارة ولبن وجذوع نخيل وغير ذلك · واشترك النبى (ص) والصحابة في أعمال البناء حتى تمت اقامة المسجد النبوى الشريف (٣٣) كأول عمل معمارى هام في الاسلام ·

وحين كان النبى (ص) وصحابته يضعون اساس المسجد النبوى كانوا في الوقت نفسه يضعون أساس فن العمارة والزخرفة الاسلامية :

اذ تطورت عمارة المسجد النبوى بعد ذلك على أساس التصميم الذى بدأه النبى (ص) ، وظل هذا المسجد نموذجا احتذاه مشيدو المساجد فيالاقطار الاسلامية الاحرى طوال القرون الاربعة الاولى من الهجرة مثل مساجد البصرة والكوفه والفسطاط والقيروان وبنى أمية في دمشق (٣٤) ، كما صار طرازه أهم الطرز المعمارية لبناء المساجد في العصور المختلفة ، وكان الدافع على ذلك الحرص على الاقتدام بالنسنة النبوية الشريفة · (٣٥) ·

وفي مبانى المساجد تطورت أساليب الخطيط والتصميم بالاضافة الى العناصر المعمارية التى انتقلت الى سائر أنواع المبانى الاسلامية من قصور ومدارس وقلاع وغير ذلك فضلا عن الاساليب الزخرفية من هندسية ونباتية وكتابية ·

وعن طريق العناية بأثاث المساجد والرغبة في تجميلها ازدهرت الفنون الزخرفية والتطبيقية الاسلامية : اذ تطورت فنون المعادن مثلا بفضل العناية بالاثاث المعدنى بالمساجد كالاباريق والثريات والشماعد والمساند بالاضافة الى النوافذ والابواب المصفحة ، وتطورت الصناعات الخشبية بمختلف أنواعها تبعا للاهتمام بالاثاث الخشبي من منابر وكراسى وارحال ، وتطورت فنون الزجاج عن طريق العناية بمصابيح الاضاءة والمشكاوات وزجاج النوافذ، وارتقت فنون السجاد بفضلالاهتمام بفرش المساجد : بل ان هذا الفن الذى نبغ فيه المسلمون وكاد أن يختص بهم استمد اسمه من لفظة المسجد نفسها ·

والى جانب المسجد وجد محور عربى اسلامى آخر كان أساسا رئيسيا من أسس الفن الاسلامى هو المصحف الشريف ·

وقد أطلق اسم المصحف على القرآن الكريم المدون والمحفوظ بين دفتين (٣٦) ، واشتقت هذه التسمية من غير شك من لفظة «صحف» التى ورد ذكرها في قول الله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة . رسول من الله يتلو صحفا مطهرة . فيها كتب قيمة . » (٣٧) وفي قوله تعالى : « كلا انها تذكرة . فمن شاء ذكره . في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدى سفرة . كرام بررة . » (٣٨)

وبدأت العناية الشكلية بالمصحف الشريف بعد جمعه في عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ثم بعد نسخ المصاحف المعتمدة في عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه (٣٩) . وكانت هذه العناية من أهم الاسباب التى أدت الى ازدهار عدد من الفنون الاسلامية من جهة ، والى تطوير أنماط من الزخارف الاسلامية من جهة أخرى.

ومن الفنون التى تقدمت بفضل الحرص على صيانة المصحف الشريف فن تجليد الكتب الذى ازدهر على يد المسلمين تبعا لعنايتهم بغلاف المصحف الشريف : سواء من حيث الصنعة أو الزخرفة مما حدا بالاوربيين الى تقليده .

ومن أبرز معالم التجليد الاسلامى التى استخدمها الاوربيون في عصر النهضه الاوربية « لسان الغلاف » الذى استعمل لحفظ أطراف الصحف الخارجية من جهة ، ولتعيين مواضع الوقوف بعد القراءة حتى يمكن متابعة القراءة في المرة التالية من جهة أخرى . وكان « اللسان » ـ مثله مثل ظاهر الغلاف وباطنه ـ مجالا تجلت فيه براعة الفنان المسلم في ابتكار الزخارف الجميلة (٤٠) ، واستخدام شتى الاساليب الصناعية من ترصيع وتذهيب وتلوين وضغط وتخريم وطبع وغير ذلك .

وشاع على أغلفة الكتب استخدام نمط من الزخرفة أقبل صناع السجاد على استخدامه وظهر تأثيره في زخرفة أبواب المساجد المصنوعة من الخشب المصفح بالنحاس ويتألف هذا النمط الزخرفى من صرة كبيرة في الوسط بداخلها زخارف نباتية منسقة بطريقة هندسية ، ومن ربع صرة في كل ركن من الاركان ، ومن اطار زخرفى يحيط بالمساحة المستطيلة كلها .

وبالاضافة الى فن التجليد ازدهر أيضا فن التذهيب . وقد تطور هذا الفن من العناية بتعيين مواضع التقسيمات في المصحف الشريف مثل فواصل الآيات ، وبدايات السور والأحزاب والاجزاء ومواضع السجدات فضلا عن الهوامش وصفحتى البداية والنهاية ، حيث زودت هذه المواضع بالزخارف . (٤١)

ثم تطورت العناية بهذه المواضع الى أن صار يستخدم التذهيب في زخارف المصحف التى وصلت درجة رفيعة من الجمال والاتقان حتى صارت نماذج يحتذيها المزخرفون في سائر الفنون الاسلامية .

غير أن أهم الفنون التى كان للمصحف الشريف فضل كبير في تجويدها الخط العربى

ويعتبر الخط العربى أحد الجذور الاساسية الثلاثة التى تفرعت منها الفنون الاسلامية وذلك بالاضافة الى المسجد والمصحف الشريف ، وقد ظل في الوقت نفسه أهم العوامل المحققة لوحدتها على اختلاف العصور والاقطار . (٤٢)

والخط العربى هو الفن العربى الاصيل بحق . وقد نقله العرب الى الاقطار التى فتحوها كما نقلوا اليها اللغة العربية والاسلام سواء بسواء ، كما تطور على يد العرب الى فن جميل احتل مكان الصدارة بين الفنون الاسلامية . وكان لكتابة القرآن الكريم بخط عربى وتلاوته في المصاحف والتعبد بذلك فضل كبير في اعزاز شأن الخط العربى واجلاله : ذلك أنه صار يرتبط في أذهان المسلمين بالقرآن والتلاوة والعبادة، ومن ثم لم يقف اعجاب المسلمين بالخط عند حد ما فيه من قيمة جمالية وعلمية ، بل صار يتصل أيضا بالعاطفة الدينية ، وهكذا صار المسلمون ينظرون الى الخط نظرة اكبار وتقدير ، ويتذوقونه بمتعة روحية بالاضافة الى اللذة الجمالية .

على أن العرب كانوا يجلون الكتابة ويقدرونها فيما قبل الاسلام حتى أنهم أحاطوا نشأتها ببعض الاساطير كما نسبوها الى بعض الانبياء (٤٣) . ويستشف من الاخبار التى وصلتنا أنهم كانوا يضعون الكتابة في مرتبة أعلى من الحفظ ، وكانت القصيدة التى تحوز تقديرهم تكتب بماء الذهب وتعلق في الكعبة اجلالا لشأنها . (٤٤)

وتاكدت نزعة تفضيل الكتابة على الحفظ عند العرب بعد الاسلام ، وعبر ذو الرمة عن ذلك حين قال لعيسى بن عمر : « اكتب شعرى فالكتاب أعجب الى من الحفظ لان الاعرابى ينسى الكلمة قد تعب في طلبها يوما او ليلة فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس » (٤٥) .

وضرب النبى صلى الله عليه وسلم للمسلمين المثل في العناية بالكتابة حين كان يطلق سراح الاسير اذا علم الكتابة لعشرة من صبيان المسلمين .

ويتجلى تقدير العرب للكتابة والخط فيما ورد عنهم من نثر ونظم في الاشادة بالخط الجميل ، وفي كثرة التشبيه في الادب بالخط وأدواته وبالحروف وأشكالها .
ومن أمثلة ذلك ما جاء من أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال : « الخط الحسن يزيد الحق وضوحا » .

وقال ابن المعتز :

اذا اخذ القرطاس خلت يمنه   تفتح نورا أو تنظم جوهرا (٤٦)

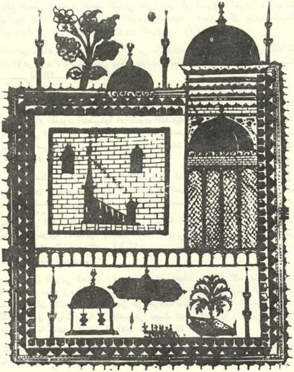

(شكل ٢)

صورة للحرم النبوى الشريف مرسومة
على بلاطه من الخزف مؤرخه ١١٤١ هـ

وبالغ البعض في تقدير الخط العربى حتى زعموا أن للحروف أسرارا وقوى خفية، وربطوا بين هذه القوى وبين نسب الحروف العددية ، وخصوا كل حرف بطبيعة من الطبائع ، وقرنوا بين عالم الطبيعة وبين الحروف · (٤٧)

وكان من مظاهر العناية بالخط العربى ما أدخله علماء اللغة على الكتابة من علامات الاعراب والاعجام حتى يمكن تفادى الخطأ في القراءة لاسيما في تلاوة القرآن الكريم · (٤٨)

وبذل العرب جهودا متواصلة في سبيل الوصول بالخط العربى الى مستوى فني رفيع ، كما أسهم الخطاط العربى في اخراج معظم التحف الفنية الاسلامية سواء في مجال العمارة أو الفنون التطبيقية أوالفنون التشكيلية : اذ لم يقتصر عمل الخطاطين على الكتابة على الورق بل امتد الى الكتابة على التحف الفنية والمعمارية بواسطة التلوين والترصيع والحفر سواء في الجص او الخشب أو الحجر أو غير ذلك من مواد البناء والزخرفة ·

واعار الخط العربى الى الفنون الاسلامية المختلفة طابعه الجمالى القائم على التناسب ، ومن ثم تميزت الفنون الاسلامية في الدرجة الاولى بالطابع الزخرفي الذى يعتمد بصفة أساسية على الخط والنقطة وحسن التناسب بينهما ·

ويتضح أثر الخط العربى بجلاء في الزخرفة الاسلامية : اذ تأثرت العناصر والوحدات الزخرفية الاسلامية بأشكال الخط العربى ، وانه لتمتزج أحيانا حروف الخط بالوحدات والعناصر الزخرفية الاخرى من نباتية وهندسيه وحيوانية حتى يصعب التمييز بينها ·

ودخل الخط العربى كعنصر زخرفى هام في منتجات الفنون الاسلامية المختلفة وذلك لماله من ميزة زخرفيه واضحة · ويتأكد هذا الدور الزخرفى اذا لاحظنا أنه في بعض الاحيان كانت التحف تشتمل على حروف وكلمات عربية لا معنى لها ، كما أن الكتابة تصل أحيانا درجة من الغموض بحيث تتعذر قراءتها وتفسيرها ، ومن ثم كان دور الكتابة يقتصر في هذه الحالات على الزخرفة فقط ·

وكان الخط في كثير من الاحيان يمثل العناصر في زخرفة الانتاج الفنى الاسلامى، بل انه كان في بعض الاحيان يمثل العنصر الزخرفى الوحيد فيه ·

وبعد : فاذا كان كل مجتمع قد تميز بفن من الفنون وجد فيه التعبير الحقيقى عن روحه وشخصيته وطموحه واستمد منه روح الابتكار اللازمة لنهضته ، فان الخط العربى كان هو الفن العربى الاصيل الذى يعبر بصدق عن الروح الاسلامى وطموحه وآماله ·

اثر احكام الاسلام في الفنون الاسلامية

على عكس ما يزعم البعض من أن الفنون الاسلامية بعيدة عن روح الاسلام وتعاليمه (٤٩) فان هذه الفنون قد استوحت في نشأتها وخصائصها مبادىء الاسلام واحكامه ٠

فمن جهة يلاحظ أن الفن الاسلامى نشأ بدافع الرغبة في الاجادة والاتقان وأحرز في ذلك المجال قصب السبق على غيره من الفنون ٠ والحق أن هذه الرغبة في الاجادة والاتقان مستمدة من الاسلام نفسه : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه ٠ »

ومن المعروف أن المبالغة فيالاتقان والاجادة تؤدى بطبيعتها الى التنميق والتزويق مما يفسر لنا الدرجة العظيمة من التأنق والزخرفة التى بلغتها الفنون الاسلامية ٠

ومن جهة أخرى تاثر الفن الاسلامى بدافع آخر هو الرغبة في تجميل الحياة والاستمتاع بزينتها ، وهذه الرغبة مستوحاة أيضا من مبادىء الاسلام ٠ قال الله تعالى : « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ٠ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ٠ قل هى للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » (٥٠)

وبالاضافة الى ذلك ذكر الله سبحانه وتعالى أنه زين السماء بالكواكب : « ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين ٠ » (٥١)

وكان ميل الفنون الاسلامية الى الطابع الزخرفى من آثار عقيدة الاسلام ومن ثم بعدعن تقليد الطبيعة وعن محاكاة الواقع حتى يتحاشى مضاهاة خلق الله سواء في صور الكائنات الحية أو في الصور النباتية كما تفوق في مجال الزخارف الهندسية حتى بلغ فيها مرتبة لا يكاد يدانيه فيها فن آخر ٠ وطور المسلمون الزخارف الهندسية على أسس مدروسة وابتكروا أنواعا من هذه الزخارف لم يسبقوا اليها ، ولا شك أن من عوامل تفوقهم في هذا المجال نبوعهم في الرياضيات بعامة بالاضافة الى احساسهم الموسيقى الذى أكتسبوه بفضل فطرتهم الشعريه (٥٢) ٠

وبالاضافة الى ذلك كان لتعاليم الاسلام أثر مهم في فن التصوير اذ كان من نتيجة تحريم الاسلام لتجسيم المعتقدات الدينية أن بعد التصوير في المجتمع الاسلامى عن الدين فلم يدخل في المساجد حيث استبدل به الكتابة العربية ، (٥٣) ولم يستخدم في تجميل المصاحف ، حيث اقتصر على الزخارف الهندسية والعناصر النباتية المحوره ولم يستعمل في توضيح كتب الدين ، ولم يتخذ كوسيلة للارشاد والوعظ ·

وهكذا كاد أن يقتصر بالتصوير على توضيح الكتب العلمية وبعض الكتب القصصية والتاريخية ·

غير أن بعد التصوير عن الدين هياله ميزة لم تتهيأ للتصوير في الفنون الدينية الاخرى : اذ جعله مدنيا في طابعه ينظر اليه كفن من فنون الدنيا لا كعمل من أعمال الآخرة ، ومن ثم كان أقرب من غيره الى الفكرة الفنية الخالصة ، كما صار ميدانه الحياة الدنيا بما فيها من مناظر طبيعية وأحداث بشرية ·

كما تميز التصوير في المجتمع الاسلامى منذ البداية بالاقبال على تصوير الطبيعة البحتة التى لا تتمثل فيها صور الكائنات الحية كما هى الحال في صور الفسيفساء في الجامع الاموى بدمشق · وربما يرجع الالتجاء الى هذه المناظر الطبيعية الى أن بعض علماء المسلمين لم يجدوا غضاضة في تصوير ماليس فيه روح فضلا عن أن في رسم هذه المناظر توجيها للانظار الى جمال الطبيعة التى دعا الأسلام الى تأملها والى تدبر قدرة الله الذى أحسن كل شيء خلقه ·

وهكذا يتضح مدى ما كان للعروبة والاسلام من أثر في نشأة فنون العمارة والزخرفة الاسلامية ·

دكتور حسن الباشا

الهوامش والمصادر

(١) Georges Marcais, L'art de l'Islam, pp. 5—18.

(٢) أشكال زخرفية على هيئة صفوف من الحنيات او المحاريب الصغيرة بعضها فوق بعض تكسو خطوط التقابل بين الاسطح الافقية والرأسيه والزوايا · انظر
Dr. Hassan El-Basha,. The Muqarnas, Minbar Al-Islam, vol. III No. 1,pp. 34-37, vol. v, No. 1, pp. 22-25.

(٣) انظر مثلا : Richmoud, Moslem Architecture , P. 9 ; A. H. Christie, Islamic Minor Arts and their Influeuce upon European Work, "The Legacy of Islam, 1965) , p. 108 ; Marfin S. Briggs, Architecture, " The Legacy of Islam , 1965), pp. 155-157; K.A.C.Creswell, A Short Account of Early Maslim Architecture, pp. 1 , 15-16.

وكذلك ديماند : الفنون الاسلامية · ترجمة احمد محمد عيسى ص ٢٤ ، جاك · سى · ريسلر : الحضارة العربية ترجمة غنيم عبدون ص ٩ ـ ١٠ ، الدكتور كمال الدين سامح : العمارة في صدر الاسلام ص ٣ ·

واشار الى هذه المزاعم غوستاف لوبون : حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر الطبعة الرابعة ص ٨٧ ، والدكتور زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ١ـ٢ ، والدكتور محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الاسلامى تاريخه وخصائصه ص ٩ـ١٠

(٤) الدكتوره سيجريدهونكه : فضل العرب على اوربا أو شمس الله على الغرب ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على ص ٣٤٩ ·

(٥) ابن هشام : السيرة حـ ١ ص ٣٩

(٦) المرجع نفسه ج ١ ص ٣٨

---

(٧) السيد عبيد مدنى : أطوم المدينة المنورة ، مجلد كلية الاداب ، المجلد الثالث ، السنة الثالثه ، ص ٢١٧ ــ ٢٢٤ ٠

(٨) الدكتوره سيجريدهونكه : المرجع السابق ص ٣٤٩ ــ ٣٥٠ ٠

(٩) سورة الحشر الآية ٢ ٠ (١٠) سورة الاحزاب الآية ٢٦ ٠

(١١) سورة النساء الآية ٧٨ ٠ (١٢) سورة الاعراف الآية ٧٤ ٠

(١٣) سورة الزمر الآية ٢٠ ٠ (١٤) سورة الحشر الآية ١٤ ٠

(١٥) سورة النمل الآية ٤٤ ٠ (١٦) سورة الحشر الآية ١٤ ٠

(١٧) صحيح البخارى : صلاة ٨٨

(١٨) الازرقى : أخبار مكة طبعة مكة ص ٧٢ ٠

(١٩) صحيح البخارى جـ ٤ ص ٣٠

(٢٠) المرجع نفسه جـ ٢ ص ١٩ ٠

(٢١) المفضليات جـ ١ ص ١٧٥

(٢٢) صحيح البخارى جـ ٤ ص ٣٠ ٠

(٢٣) المرجع نفسه جـ ٤ ص ٤٠ ٠

(٢٤) احمد تيمور : التصوير عند العرب ص ٨٢ ٠

(٢٥) المرجع نفسه ص ١٢ ٠

(٢٦) صحيح البخارى : لباس ٤٦

(٢٧) الترمذى : جهاد ١٦

(٢٨) صحيح البخارى : بيوع ٣٨

(٢٩) Ernst J. Grube, The World of Islam, pp. 8-11.

(٣٠) سورة التوبة الآية ١٣ ٠

(٣١) صحيح البخارى : صلاة ٦٥ ٠

(٣٢) سورة التوبة آية ١٠٨

---

(٣٣) انظر ما جاء في هذا الصدد : ابن النجار : « الدرة الثمينة في أخبار المدينة » السمهودى : « وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى » ، « خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى » ·

(٣٤) انظر في هذا الصدد
K.A.C.Creswell, Early Muslim Apchitecture,

(٣٥) Sauvoget , Lomosqvee Cmayyade de Medine

(٣٦) ذكر الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق في بحثه « المصحف الشريف » ص ١١ أن سالم بن معقل (ت سنة ١٢ هـ) هو من أطلق لفظة المصحف على القرآن الكريم بعد أن جمع في صحف وضعت بين دفتين ، ونقل عن الجاحظ أن الاحباش يقولون ان العرب قد نقلوا منهم المصحف الذى يحفظ محتوى الكتاب ، ونقل عن السيوطى في الاتقان أن القوم اختلفوا ما يسمونه فقال أحدهم رايت مثله في الحبشه يسمى المصحف فاجتمع رايهم على ذلك ·

(٣٧) سورة البينة الآيات ١ ـ ٣

(٣٨) سورة عبس الآيات ١١ ـ ١٦ ·

(٣٩) السيوطى : الاتقان في علوم القرآن جـ ١ ص ٥٧ ·

(٤٠) الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق : المصحف الشريف ص ٢٣ ـ ٢٥

(٤١) قوبلت هذه الزخارف في أول الامر بحذر من قبل البعض الذين كرهوا أن يضاف شيء الى رسم مصحف عثمان غير أن هذا الحذر لم يلبث أن تلاشى حين اتضح أن العناية بتعيين هذه المواضع لا تخلو من فائدة تعليمية · انظر المرجع نفسه ص ٤٢ ·

(٤٢) Georges Marcais, L'Art de L'Islam , P. 12 ;
Ernst J. Grube, The World of Islam , p. 11.

(٤٣) القلقشندى : صبح الاعشى في صناعة الانشا جـ ٣ ص ٦و٧ ·

(٤٤) سميت هذه القصائد لذلك بالمعلقات ·

(٤٥) النويرى : نهاية الارب في فنون الادب السفر السابع ص ١٨ ·

(٤٦) انظر أمثلة أخرى في المرجع نفسه ص ١٤ و ١٥

(٤٧) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٦١ ـ ٥٩٢ ·

(٤٨) مر وضع علامات الاعراب والاعجام بعدة مراحل أهمها حسب ما ذكرته المصادر وضع علامات

الاعراب على هيئة نقط على يد أبى الاسود الدؤلى ثم وضع علامات الاعجام المعروفة حاليا على يد نصر بن عاصم زمن الحجاج وكانت نقط الاعراب بلون مختلف عن لون الكتابة ثم تحويل نقط الاعراب القديمة الى الاشكال المعروفة حاليا على يد الخليل بن أحمد ·

(٤٩) انظر ما ذكره في هذا الصدد الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الاسلامى : تاريخه

(٥٠) سورة الاعراف الايات ٣١ ـ ٤٣

(٥١) سورة الحجر الآية ١٦

(٥٢) انظر مؤلفات
Ernst 9. Grube , op. clt., p. 8, M.Bourgoin

(٥٣) جرت العادة أن تزخرف جدران الكنائس البيزنطية وغيرها من المعابد غير الاسلامية بصور تمثل موضوعات دينية يقصد منها اغراض دينية وتعليمية وفنية وقد استبدل بهذه الصور في المساجد كتابات بالخط العربى الجميل تحقق الاغراض نفسها وتماثل في اشكالها وتصميمها النسب الجمالية في الصور ان لم تكن تفوقها ·

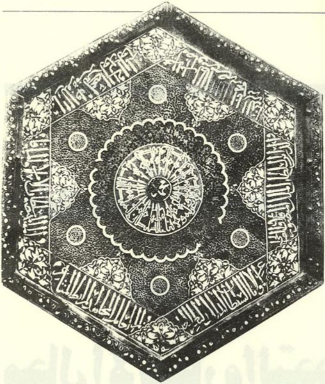

من روائــــع الفن الاســــلامى

سطح كرسى عشاء من النحاس المكفت بالفضة والذهب ، سداسى الشكل ، وقطــره ٣٩ سم مؤرخ الصنع ٧٢٨ هـ/ ١٣٢٧ م . باسم السلطان الملك المنصور قلاوون ، وهو غايـة فى دقة الصـــناعه النحاسية التى تجمع بين التخريم والتوريق والتكفيت واســتخدام الزخارف الخطيـة الكوفيــه (فى الوسط) واللينة (فى جوانب المسدس) بما يكاد يكون منعدم النظـــير .